١٢- البحر المحيط في التفسير

لأبي عبد اللّه محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الشهير بأبي حيان الأندلسي المتوفى سنة٧٤٥هـ

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مؤلف البحر المحيط هو الإمام أبو عبد اللّه أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الجياني النفزي[١] الشهير بأبي حيان المولود سنة (٦٥٤)[٢].

تلقى أبو حيان البدايات في الكتاتيب وحلقات التعليم في دياره ثم التقى الشيوخ وارتحل بعد أن عرف قدر العلم وفضل أهله، فانتقل من بلد إلى آخر، ومن عالم إلى آخر، يختار الأجلاء، وينتقي الفضلاء، وكان ذلك في وقت مبكر كما يصرح بذلك المصنف نفسه، حين يقول: (وما زلت من لدن ميزت أتلمذ للعلماء، وأنحاز للفهماء، وأرغب في مجالسهم، وأنافس في نفائسهم، وأسلك طريقهم، وأتبع فريقهم، فلا أنتقل إلا من إمام إلى إمام،

---

(١) الجياني، نسبة إلى جيان - بالفتح ثم التشديد، مدينة بالأندلس. معجم البلدان لياقوت: ٢/ ١٩٥ - والنفزي، نسبة إلى نفزة -بكسر النون وسكون الفاء- قبيلة من البربر. انظر: طبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٢٨٧ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٤٥.

(٢) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٨٨ - والدرر الكامنة لابن حجر: ٤/ ٣٠٢- وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٢٨٧ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٤٥.

ولا أتوقَّلُ إلا ذروة علاّم).[١]

وهكذا جمع من العلم ما حواه صدور شيوخه وأودعها صدره، وإن لقي في ذلك التعب والنصب (فكم صدر أودعت علمه صدري، وحبر أفنيت في فوائده حبري، وإمام أكثرت به الإلمام، وعلاّم أطلت معه الاستعلام.... إلى أن يقول: فجعلت العلم بالنهار سحيري، وبالليل سميري،... أتوسد أبواب العلماء، وأتقصَّد أماثل الفُهماء، وأسهر في حنادس الظلام، وأصبر على شظف الأيام وأؤثر العلم على الأهل والمال والولد، وأرتحل من بلد إلى بلد، حتى ألقيت بمصر عصا التسيار، وقلت: ما عبادان من دار.[٢]

يقول الصفدي[٣]: لم أر في أشياخي أكثر اشتغالاً منه، لأني لم أره إلا

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ١١، ويقال: توقُّلاً: صعد، قال ابن فارس: الواو والقاف واللام كلمة تدل على علو في جبل، وتوقل في الجبل: علا، وكل صاعد في شيء متوقّل. انظر: أساس البلاغة للزمخشري (وقل): ٦٨٦ - ومعجم مقاييس اللغة (وقل): ٦/ ١٣٠ - والقاموس المحيط (وقل): ١٣٨٠ وعلاّم: مبالغة في الوصف بالعلم.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١١.

(٣) هو خليل بن أيبك بن عبد اللّه الصفدي، أديب مؤرخ مهتم بالتراجم، رسام خطاط، كتب كثيراً، له الوافي بالوفيات وغيره. توفي (٧٦٤هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ٢/ ٨٧ - والأعلام للزركلي: ٢/ ٣١٥.

يسمع أو يشتغل أو يكتب، ولم أره على غير ذلك.[١]

ارتحل من دياره (غرناطة) حين وقعت بينه وبين شيخه أبي جعفر بن الزبير واقعة، فنال أبو حيان منه، وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان، وأمر بإحضاره والتنكيل به، فاختفى وركب البحر ولحق بالمشرق.[٢]

أجمع المترجمون له على إمامته في فنون عديدة، فهو أستاذ المفسرين وشيخ النحاة بالديار المصرية، والإمام المطلق في النحو والصرف، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يدركه أحد، وله اليد الطولى في التفسير والحديث الذي واكب على طلبه حتى أتقنه، وغدا شيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية، وشرع في القراءات والأدب والتاريخ والتراجم، واشتهر اسمه وطار صيته، وكان - رحمه الله- شافعياً في الفروع، سالم العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم، يميل إلى مذهب أهل الظاهر، كبير الخشوع عند قراءة القرآن.[٣]

نعته الصفدي بقوله: الإمام العالم العلامة الفريد الكامل، حجة

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي: ٥/ ٢٦٧.

(٢) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٢٨٨ - وشذرات الذهب لابن عماد: ٦/ ١٤٦.

(٣) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٩٥ -والدرر الكامنة لابن حجر: ٤/ ٣٠٢ -وطبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٢٨٧- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٤٥.

العرب، مالك أزمّة الأدب.[١]

وقال لسان الدين الخطيب: كان نسيج وحده في ثقوب الذهن وصحة الإدراك بعلم العربية، والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية، إمام النحاة في زمانه غير مدافع.[٢]

شيوخه وتلاميذه:

سبقت الإشارة أن أبا حيان تنقل من شيخ إلى شيخ، وارتحل من قطر لآخر، فلقي العلماء، وانتقى الفهماء وقال عن شيوخه: وعدة من أخذت عنهم أربعمائة وخمسون شخصاً، وأما من أجازني فكثير جداً.[٣]

وذكر الرعيني[٤] أن أبا حيان قال: سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والإسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلة و.... وفصل من لقي في كل بلد، ثم قال: وهذه نبذة من شيوخي، وجملة من

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي: ٥/ ٢٦٧ - ونفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٨٩.

(٢) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة للخطيب: ٣/ ٤٣.

(٣) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٣٠٥ - والدرر الكامنة لابن حجر: ٤/ ٣٠٢ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٤٥.

(٤) هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الغرناطي، نحوي حسن الخلق حلو المحاضرة، له اقتطاف الأزهار والتقاط الجواهر، توفي (٧٣٠هـ). انظر: غاية النهاية لابن الجزري: ١/ ١٥١ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٦٠.

سمعت منهم نحو خمسمائة، والمجيزون أكثر من ألف.[١]

وقد فصل الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات[٢] الحديث عن شيوخ أبي حيان، كما ذكر أبو حيان نفسه ثلة منهم في الخطبة التي قدمها بين يدي تفسيره البحر المحيط[٣]، ونقل المقري نصاً طويلاً عن الصفدي في ذلك[٤].

ومن شيوخه:

أبو علي الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص ت(٦٧٩هـ)[٥] وأبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ت(٧٠٥هـ)[٦]، وغيرهم

---

(١) انظره: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٣١٥.

(٢) انظره: ٥/ ٢٦٦.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ١٥ وما بعده.

(٤) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٨٩.

(٥) هو الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي، والمعروف بابن الناظر، قاض حافظ نحوي من فقهاء المحدثين القراء النحاة الأدباء، له شرح المستصفى، توفي (٦٧٩هـ). انظر: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري: ١/ ٢٤٢- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١٥٣.

(٦) هو عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف الدمياطي، مقرئ محدث نسابة إخباري، اشتهر بحفظه وإتقانه، له مصنفات نفيسة منها السيرة النبوية، توفي (٧٠٥هـ). انظر: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري: ١/ ٤٧٣ -وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٢.

كثير.[١]

وأقرأ أبو حيان الناس، وألحق الصغار بالكبار، وصارت تلامذته أئمة وشيوخاً في حياته، واشتهر اسمه، وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره، وتقدموا في حياته، وقد كان يرحمه اللّه يختار الأذكياء من طلابه ويوليهم عناية خاصة، ويعظمهم وينوه بقدرهم.

ومن جملة **تلامذته**: الشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي بن تمام السبكي ت(٧٥٦)[٢]، وأحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي المعروف بالسمين ت(٧٥٦هـ) وخلائق لا يحصون كثرة[٣].

مؤلفاته:

مؤلفات أبي حيان كثيرة، انتشرت في حياته وبعد مماته، يقول الحافظ ابن حجر: له التصانيف التي سارت في آفاق الأرض واشتهرت في حياته.[٤]

---

(١) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٨٩ -٣٠٧- والدرر الكامنة لابن حجر: ٣/ ٣٠٢ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٤٥.

(٢) هو تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي السبكي الشافعي، مفسر أصولي حافظ لغوي نحوي مقرئ نظار، أخذ عنه كثيرون، له نحو مائة وخمسين كتاباً مطولاً، توفي (٧٥٦هـ). انظر: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري: ١/ ٥٥١- وشذرات لابن العماد: ٦/ ١٨٠.

(٣) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٢٨٨ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٤٦.

(٤) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ٤/ ٣٠٨.

ولأبي حيان أكثر من خمسين تصنيفاً في فنون العلم المختلفة، وقد سرد المقري أسماءها في كتابه نفح الطيب[١]، أذكر منها:

١) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب.

٢) ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب.

٣) عقد اللآلي، منظومة في القراءات السبع.

٤) الأثير في قراءة ابن كثير، قيل: إنه مفقود.

٥) التذييل والتكميل في شرح كتاب سيبويه.

وفاته:

مات أثير الدين شيخ الورى فاستعر البارق واستعبرا

توفي أبو حيان -رحمه اللّه تعالى - بعد أن عمر طويلاً، فتجاوز التسعين، وذلك سنة (٧٤٥هـ)، وقد رثاه الشعراء بمراثي مبكية، كما مدحه الشعراء في حياته وبعد مماته[٢].

---

(١) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٣٠٥- وانظر البحر المحيط، تحقيق الدكتور عبد السميع حسنين: ١/ ١٣٦-١٥٤.

(٢) انظر: نفح الطيب للمقري: ٣/ ٢٩١-و٣/ ٢٩٧- الدرر الكامنة لابن حجر: ٤/ ٣١٠- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ١٤٧ وينظر للمزيد في ترجمته: الإحاطة في أخبار غرناطة للخطيب: ٣/ ٤٣- والبحر المحيط لأبي حيان (مقدمة المحقق)، تحقيق الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسنين: ١/ ١٣٦-١٥٤-والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن=

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

كان تصنيف هذا التفسير أمنية طالما اختلج في ذكر المصنف، واعتلج في فكره، وطمح إليه، فكم رجا اللّه أن يوفقه في ذلك، ويبلغه الأمد الذي يتفصد فيه الأديم ويتنغص من رؤيته النديم[١]، قاصداً به وجه اللّه، محتسباً الأجر عليه (فما لمخلوقٍ بتأليفه قصدت، ولا غير وجه اللّه به أردت).[٢]

وحين بلغ السابعة والخمسين من العمر، وانتصب مدرساً للتفسير في قبة السلطان الملك المنصور، شرع في التأليف وتحقيق المراد، فهو إذاً من أواخر ما صنف أبو حيان من التآليف، بل لعله آخر تصانيفه.

وقد اشتهر البحر في حياة المصنف ولقي العناية والاهتمام بعد وفاته من أهل العلم وطلاب المعرفة على شتى العصور، مُذْ ألَّفه أبو حيان إلى يومنا هذا، ولا زال مرجعاً هاماً للمشتغلين بالتفسير واللغة والقراءات، ولا غرو في ذلك ما دمنا علمنا أن تصنيفه كان بعد أن نضج الفكر، واكتمل

=السابع للشوكاني: ٢/ ٢٨٨- وبغية الوعاة للسيوطي: ١/ ٢٨٠- وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٦/ ١٤٥- وطبقات المفسرين للداودي٢/ ٢٨٧ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي: ٨/ ٩٠- والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي: ١/ ٥٣٤- ونفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري: ٣/ ٢٨٨- ٣٣٩ - والوافي بالوفيات للصفدي: ٥/ ٢٦٦.

(١) كناية عن كبر السن.

(٢) البحر المحيط: ١/ ١١.

العقل واستوى على سوقه.

ولأهميته اختصره تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر بن مكتوم[١] وسماه (الدر اللقيط من البحر المحيط).

سلك أبو حيان في تفسيره مسلك أسلافه الأندلسيين في اعتماد التفسير بالمأثور مع اعتماد الرأي شريطة ألا يخضع للهوى والميل، وشريطة أن لا يخلو من اعتماد أقوال العلماء ضمن قوانين العلم كالنحو واللغة والأصول وغيرها، مع المعرفة التامة باللغة.

وأودع في تصنيفه هذا خلاصة فكره، وحصيلة علمه (عكفت على تصنيف هذا الكتاب، وانتخاب الصفو واللباب، أجيل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم، وأنعم النظر فيما اقترحوه من تآليفهم، فألخص مطولها، وأحل مشكلها، وأقيد مطلقها، وأفتح مغلقها، وأجمع مبددها، وأخلص منقدها، وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القوة المفكرة من لطائف علم البيان، المطلع على إعجاز القرآن).[٢]

ويلاحظ القارئ في تفسير أبي حيان تأثره الواضح بثلة من المفسرين،

---

(١) هو أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي، فقيه نحوي لغوي مفسر، تصانيفه كثيرة، توفي (٧٤٩هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ١/ ١٨٦-وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ٥٢.

(٢) انظر: البحر المحيط: ١/ ١٠.

وأكثرهم تأثيراً فيه الزمخشري وابن عطية، وقد أشار إليهما، وذكر تصنيفهما في الخطبة التي قدمها بين يدي تفسيره، وأثنى عليهما ثناءاً عاطراً، ووصفهما بأنهما فارسا علم التفسير، وممارسا تحريره والتحبير، وأنزل تفسيرهما منزلة الإنسان من العين، والذهب الإبريز من العين، وليلة القدر من الليالي.[١]

وألمح بأنه استدرك عليهما، ووضع تفسيرهما محك النظر وأنه أورى فيهما نار الفكر، حتى خلّص دسيسهما، وبرَّز نفيسهما.[٢]كما تأثر بابن جرير الطبري والرازي.

وبالرغم من تصدي المصنف للزمخشري في اعتزالياته، والحمل عليه في انحرافاته، حيث كان له رَصَداً في تأويلاته، ونصرته لمذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب اللّه عز وجل عليه، بالرغم من ذلك فقد أنصفه أبو حيان، ولم يغمضه حقه، ولعمري إن الإنصاف حق، والعدل فضيلة حتى مع الخصوم، فرحم اللّه أبا حيان، وأجزل له المثوبة.

هذا وربما يعد البحر المحيط المرجع الأول من بين التفاسير للوقوف على وجوه الإعراب واللغة وإظهار بلاغة القرآن وإعجازه، فقد اهتم المصنف اهتماماً بالغاً بالمسائل اللغوية والخلافيات، كما يعد مرجعاً هاماً للمشتغلين بالقراءات وتوجيهها، المتواترة منها والشاذة.

---

(١) انظر: البحر المحيط: ١/ ٢٠.

(٢) انظر: البحر المحيط: ١/ ٢١.

ولأبي حيان موقف حميد من الإسرائيليات، فقد دعا إلى تركها، وحذر القارئ في مواطن كثيرة من الاغترار بها، وصرح بذلك في مقدمته، وأن اكثرها خرافات وأباطيل لا تتفق مع العقل السليم، والنظر السديد.

أما المقدمة فقد جاءت مع الخطبة التي قدمها المصنف بين يدي تفسيره في ثمان عشرة صفحة من القطع المتوسط، صاغها المصنف صياغة أديب بليغ مجبول على إنشاء النثر، متمكن في اللغة، عارف بأساليب العرب في الكتابة، ذكر فيها منهجه في التأليف، ومصادره وبعض شيوخه في جملة من الفنون، كما تعرض للحديث عن عدة موضوعات من علوم القرآن، أخذ بيان ما يحتاج إليه المفسر من العلوم، والوجوه التي ينبغي النظر منها في كتاب اللّه، الأهمية الأولى، قدم المصنف نفسه من خلالها إلى قرائه، فأثبت أن إقدامه على تصنيف البحر إنما هو إقدام متبحر متسلح، قد ألمَّ بما يحتاجه المفسر، وذلك بذكر شيوخه في كل فن -وجه- والمصنفات التي قرأها في الفن نفسه حتى تمكن منها.

وتلك كانت غاية أبي حيان من ذكره لتلك الوجوه، وإلا فالبحث في هذه المسألة على الخصوص يحتاج إلى مزيد من العناية والاهتمام، وضرب الأمثلة، وبيان مسيس الحاجة للمفسر إلى التعمق في كل وجه من تلك الوجوه، وهو ما لم يفعله المصنف، ولعل ذلك كان وراء التباين بين شهرة التفسير وشهرة المقدمة التي لا تكاد تذكر عند المهتمين بعلوم القرآن.

وقد طبعت المقدمة فيما أعلم ثلاث طبعات:

١) الأولى كانت في مصر سنة ١٣٢٨هـ بمطبعة السعادة على نفقة سلطان المغرب الأقصى عبد الحفيظ ابن السلطان الحسن، وهي كثيرة الأخطاء والتحريف وصورت هذه الطبعة عدة مرات.

٢) طبعة دار الفكر -بيروت- عام١٤١٢هـ بعناية عرفان العشا حسونة وصدقي محمد جميل، وهي الأخرى كثيرة الأخطاء.

٣) طبعة جيدة ومحققة تحقيقاً علمياً دقيقاً للأجزاء الأولى لأستاذنا الدكتور عبد السميع محمد أحمد حسنين، عام ١٤١٣هـ.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

أثنى المصنف على اللّه بما هو أهله، وحمده على توالي نعمائه، ثم صلى على النبي الأكرم الذي صدع بالحق فأرشد إلى الخير، وعلى آله وصحابته.

وصرح أن أهم المعارف هو علم كتاب اللّه، وأن غيره من العلوم كالأدوات، ثم ذكر الدافع إلى التصنيف، بعدها أخذ يفاخر بالأندلسيين لبراعتهم في علم كتاب اللّه، ولانفرادهم بالإقراء منذ أعصار دون غيرهم من ذوي الآداب، وذكر أن أفضل كتاب يعين على فهم كتاب اللّه هو الكتاب لسيبويه.

عقب ذلك تحدث المصنف عن حياته العلمية وكيف كان يختار الشيوخ، وينتقي الفضلاء من أهل العلم، وما لقيه في ذلك من تعب

ونصب وصبر على شظف العيش، وإيثار للعلم على المال والأهل والولد.

ثم شرع في عرض المنهج الذي سلكه، والطريقة التي سار عليها، والجوانب التي اهتم بها في تفسيره لأهميتها، وتلك التي أعرض عنها لنكارتها وبعدها، وأشار إلى ما حوته تفاسير كثير من السابقين عليه من حشو وتطويل كذكر علل النحويين ودلائل مسائل أصول الفقه وأصول الدين، واهتمام بأمور لا ينبغي الاهتمام بها كالأحاديث الواردة في الفضائل والحكايات التي لا تناسب التفسير وتواريخ بني إسرائيل وغيرها مما لا يصح، فعابهم على ذلك، وأكد أن الإحاطة بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وكيفية تركيبها هو المعين على فهم الآيات، أراد بذلك الرد على من ينكر تفسير القرآن بالرأي موقفاً فهمه على المنقول والمروي عن السلف، فخطأ المدعي وانتصر لرأيه في جواز ذلك بالأدلة.

انتقل بعدها ليستعرض مع القارئ العلوم التي يحتاجها علم التفسير، ولينبه على أحسن التأليف فيه، فقال: النظر في تفسير كتاب اللّه تعالى يكون من وجوه[1] وذكر سبعة وجوه:

الأول: علم اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً.

الثاني: معرفة الأحكام التي للكلم العربية، من جهة إفرادها ومن جهة

---

(١) انظر البحر المحيط: ١/ ١٤.

تركيبها.

الثالث: كون اللفظ - أو التركيب- أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع.

الرابع: تعيين مبهم وتبيين مجمل، وسبب نزول، ونسخ.

الخامس: معرفة الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما أشبه ذلك.

السادس: الكلام فيما يجوز على اللّه تعالى ، وما يجب له ، وما يستحيل عليه.

السابع: اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص أو تغيير حركة أو إتيان بلفظ بدل لفظ، وذلك بتواتر وآحاد.

وذكر تحت كل وجه أهم التصانيف فيه، كما صرح باسم من تتلمذ عليه من الشيوخ في كل وجه من تلك الوجوه.

وقال: **فهذه سبعة وجوه لا ينبغي أن يقدم على تفسير كتاب اللّه تعالى إلا من أحاط بجملة غالبها، من كل وجه منها.**[1]

وعاد ليأكد من جديد أن المعرفة بتلك الوجوه لا تكفي لمن أراد

---

(١) انظر البحر المحيط: ١٧/١.

التعمق في فهم غوامض الكتاب، إذ يستدعي التبحر في علم اللسان.

انتقل بعدها للحديث عن إعجاز القرآن وقرر أن إعجاز القرآن هو كونه في غاية الفصاحة ونهاية البلاغة، ورد زعم من ادعى وقوع الإعجاز بالصرفة، ففند مقولتهم، وأكد أنهم لم يرزقوا من الذّوق ما به يفرقون بين كلام الخلق وكلام الحق، وبين أن عدداً من العرب أسلموا حين سمعوا القرآن وأقروا بإعجازه، وأنه من عند اللّه كأبي ذر الذي سمع من رسول اللّه ﷺ أوائل (فصلت) فأسلم للوقت، وأذعن للدين الجديد، وأن بعضهم عاندوا ولجوا في عنادهم بغياً أن ينزل اللّه من فضله على من يشاء من عباده، كعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأن ثلة لم تدرك إعجازه، أو أدرك وعاند كمسيلمة الكذاب وغيره.

عقب ذلك نقل مقطعاً أدبياً من الكشاف للزمخشري يبهر بحسنه الأدباء -كما قال- ويقهر بفصاحته البلغاء، وجعل ذلك شاهداً للزمخشري بأهلية النظر في تفسير القرآن.

ثم استعرض مفسرين أحدهما مشرقي وهو الزمخشري نفسه، والآخر أندلسي هو ابن عطية، فأشاد بهما وأطرى عليهما وعلى تفسيرهما الثناء، وقال: هما من كتب التفسير بمنزلة الإنسان من العين، وليلة القدر من الليالي، ذكر أنه عرضهما على محك النظر، وأورى فيهما نار الفكر حتى استخلص دسيسهما وبرز نفيسهما، وبذلك بين المصنف أنه اعتمد عليهما مصدرين أساسيين له في تفسيره، وهو ما صرح به عقب ذلك.

ثم ذكر أنه اعتمد مصدراً ثالثاً، فأكثر النقل عنه هو التفسير الذي جمعه شيخه ابن النقيب[1] غير أنه لم يثني عليه بل وصمه بأنه كثير التكرير، قليل التحرير، مفرط الإسهاب.

بعد هذا انتقل المصنف ليسند قراءته للقرآن، والطرق التي قرأ بها، وأعلى سند وقع له.

ثم ذكر جملة من المروي في فضائل القرآن وذكر أن أبا عبيد القاسم بن سلام هو من جملة من صنف فيه، أتبعها بروايات تبين فضيلة علم التفسير، وذكر التفسير بالرأي وحمل المروي عن رسول اللّه ﷺ في كونه لم يفسر إلا آياً بعدد، على مغيبات القرآن، وتفسير مجمله وما لا سبيل إليه بتوقيف من اللّه تعالى، كما حمل تخطئة من قال بالرأي ولو أصاب، على تسور القرآن دون النظر في أقوال العلماء وقوانين العلوم.

وانتقل عقب ذلك إلى بيان مراتب المفسرين فذكر من مفسري الصحابة علي ابن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد اللّه ابن عمرو بن العاص -رضي اللّه عنهم أجمعين-

وذكر من التابعين الحسن البصري، ومجاهد، وسعيد بن جبير،

---

(١) هو محمد بن سليمان بن الحسن البلخي المقدسي، فقيه مفسر حنفي، له التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، توفي (٦٩٨هـ) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي: ٢/ ٢١٥ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٥/ ٤٤٢.

وعلقمة، والضحاك، وابن مزاحم، والسدي، وأبي صالح - رحمهم اللّه- ثم ذكر مسيرة التفسير من بعدهم.

وجاء الختام ببيان معنى التفسير في اللغة والاصطلاح، شارحاً التعريف الاصطلاحي الذي أطلقه.

وهذا التعريف الاصطلاحي الذي أطلقه أبو حيان اعتمده ثلة من أهل العلم، ولم زالوا يتناقلوه في كتبهم كالآلوسي وغيره.

رابعاً: منهج أبي حيان في مقدمته:

بين المصنف منهجه في التفسير، والترتيب الذي سار عليه في الخطبة التي سبقت الموضوعات التي تعرض لها في مقدمته، وفصل القول في منهجه تفصيلاً دقيقاً، غير أن منهجه في معالجة الموضوعات التي تعرض لها في المقدمة مختلف، ففي العلوم التي يحتاجها المفسر، أو الوجوه التي ينبغي للناظر في كتاب اللّه الإلمام بها، كان منهج المصنف أنه يذكر الفن بعبارة واضحة، ثم يبين بعض المصادر الهامة فيه وأفضل من صنف فيه، يعقب ذلك بذكر شيوخه الذين تلقى عنهم ذلك الفن ليبين أن إقدامه هو إقدام مُلمّ مسلح بما تحتاجه صناعة التفسير[1].

ومن منهج المصنف الاعتماد على المعقول في بعض المسائل، وضرب

---

(١) انظر البحر المحيط: ١/ ١٥ وينظر الوجوه الستة الأخرى.

الأمثلة لتقريب المسألة وذلك لإقناع القارئ بما يريد التأكيد عليه.[١]

ومن منهج المصنف أيضاً بيان مصادره -المكتوبة والمسموعة- التي استقى منها مادة كتابه، كما يذكر من تلقى عنهم العلم وأسانيده في القرآن والقراءات.[٢]

وحين يسوق المصنف الأحاديث والآثار الدالة على فضائل القرآن وتفسيره، فإنه يسردها دون أسانيدها، كما أنه لا يذكر من أخرجها من الأئمة، وقد يعقب على إحداها لبيان معنى مفردة، أو بيان تأويل عبارة.[٣]

بقي أن أشير إلى أن المصنف اعتمد في المقطع الأخير من مقدمته الذي كان عن بيان معنى التفسير كلام ابن دريد وثعلب فيما يخص اللغة، وحين عرَّف التفسير في الاصطلاح شرح مفردات التعريف.

خامساً: بيان مدى التزام المصنف في تفسيره بما ذكره في مقدمته:

لقد نهج أبو حيان في البحر نهجاً قويماً، ورسم لطريقه رسماً دقيقاً، والتزم ما ألزم به نفسَه في الغالب، فقد بيّن أنه يبتدأ بالكلام على مفردات الآية لفظة لفظة، ويبين ما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية، والتزم

---

(١) انظر: البحر المحيط: ١/ ١٣-١٨.

(٢) انظر البحر المحيط: ١/ ٢١-٢٢-٢٣.

(٣) انظر البحر المحيط: ١/ ٢٤-٢٥.

ذلك[١]، ويتكلم في التفسير فيذكر سبب النزول للآيات التي لها سبب نزول مع بيان مناسبتها وارتباطها بما قبلها، والتزم ذلك أيضاً[٢]، مثبتاً القراءات شاذها ومستعملها، مع توجيهها والترجيح بينها عدا المتواتر فإنه لا يرجح بينها لاعتبارها على درجة واحدة ما دامت صادرة عن رسول اللّه ﷺ، ويتحدث عن الواضح والخفي من الكلمات، وهذا الشرط أيضاً التزمه المصنف، فقلما تجد موضعاً من كتاب اللّه في أكثر من قراءة إلا وذكر ذلك المصنف، وأورد القراءة[٣]، حتى الألفاظ المشهورة يذكرها، غير أنه لا يكرر الكلام في لفظة أو آية سبق الحديث فيها، فيكتفي بالإحالة إلى الموضع الذي تم البيان فيه[٤]، كما ينقل أقوال الفقهاء الأربعة في الأحكام الفقهية دون التعمق في ذلك، معتمداً الإحالة إلى كتب الفقه في الغالب، وقد التزم ذلك في التفسير[٥]، مختتماً بالكلام في جملة من الآيات التي فسرت إفراداً وتركيباً بما ذكر أهل العلم فيها من علم البيان والبديع، يتبع آخر الآيات بكلام منثور يشرح مضمون تلك الآيات في عبارة حسنة[٦]، وتجنب أقاويل

---

(١) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٢٥٨-٢٩٣-٥٤٠-٦٣٤-٢/ ٢٧٤-٣١٥-٦٢٢.

(٢) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٧٧-١٦٦-١٩٣-٢٤٥-٤٣٧-٥٦١-٢/ ٣٦٤-٤٢١-٧١١.

(٣) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٩٥-٣١٣-٤٤٥-٥٨٦-٢/ ٤٤٥-٤٥٨.

(٤) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٢٩٢-٦٢٧-٦٧٥-٧١٢-٢/ ١٨٤.

(٥) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٢٦١-٢٦٤-٥٨٥-٢/ ٣٩٢-٥١٨-.

(٦) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٢٢١-٣٩٩-٤٣٢-٤٧٥-٢/ ٢٧١-٣٦٠-٥١٠.

الصوفية التي يحملونها كلام اللّه، وربما أورد شيئاً من ذلك إن وجد لذلك مناسبة، كما عدل عن ترك كلام الباطنية الملحدين، وكذلك أعرض عن ذكر كثير من الإسرائيليات والحكايات التي لا تتناسب وتواريخ بني إسرائيل[١].

وهكذا يظهر للقارئ أن المفسر قد التزم في تفسيره بما ذكره في مقدمته، ولم يخل بذلك في الجملة.

سادساً: مصادره في المقدمة:

ذكر المصنف في مقدمته أسماء وعناوين مصادر كثيرة، غير أن النقول التي أوردها في المقدمة هي من عشرة مصادر فقط، فهو لم يكثر من النقل، والذين نقل عنهم هم:

أبو جعفر بن الزبير، وهو شيخه، وما أورده هو شيء سمعه منه.[٢]

وأبو بكر الباقلاني من كتابه الانتصار في إعجاز القرآن، هكذا سماه المصنف، واسمه الصحيح: الانتصار في صحة نقل القرآن.[٣]

---

(١) انظر أمثلة ذلك: ١/ ٢٦٠-٣٦٦-٥٢٨.

(٢) انظر البحر المحيط: ١/ ١٧.

(٣) انظر البحر المحيط: ١/ ١٩.

والزمخشري من الكشاف.[١]

و ابن عطية من تفسيره.[٢]

ومحمد بن وهب القشيري.[٣]

وابن النقيب من كتابه التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير.[٤]

وأبو عبد اللّه القاسم بن سلام، والمصنف لم يصرح بالنقل عنه وإن كان قد أورده في معرض النقل عنه[٥]

والإمام البخاري.[٦]

وابن دريد.[٧]

وثعلب.[٨]

---

(١) انظر البحر المحيط: ١/ ١٩.

(٢) انظر البحر المحيط: ١/ ٢٠.

(٣) انظر البحر المحيط: ١/ ١٩.

(٤) انظر البحر المحيط: ١/ ٢٢.

(٥) انظر البحر المحيط: ١/ ٢٣.

(٦) انظر البحر المحيط: ١/ ٢٤.

(٧) انظر البحر المحيط: ١/ ٢٦.

(٨) انظر البحر المحيط: ١/ ٢٦.

obeikandl.com

سابعاً: أهم المزايا وأظهر المآخذ:

لا يستطيع المرء الحكم على مقدمة أبي حيان ذلك لأن المصنف لم يرد منها ما أراده غيره من جعلها مقدمة تشتمل على ما يلزم المفسر من العلوم والأدوات التي تعينه على تفسير كتاب اللّه، أو تلك التي يلزم القارئ الإلمام بها ومعرفتها قبل قراءة التفسير ليكون على دراية ومعرفة.

وما جاء في هذه المقدمة من الوجوه التي ذكرها المصنف والتي ذكر لزوم معرفتها للناظر في كتاب اللّه، وذكرها المصنف كما سبق أن قلت ليبين أنه آخذ بها قبل الإقدام على طرق باب التفسير.

وعلى العموم فإن من أهم مزايا هذه المقدمة أنها المقدمة الأولى من بين المقدمات التي درستها تقدم تعريفاً اصطلاحياً لعلم التفسير، وهو ما لم يفعله السابقون كما صرح بذلك المصنف نفسه. هذ ما قلته في مقدمة أبي حيان وأستغفر اللّه من التقصير والزلل.

obeikandl.com

١٣- تفسير القرآن العظيم

للحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ.

أولاً: التعريف بالمؤلف:

مصنف هذا السفر العظيم هو: الإمام القدوة أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ابن عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن ضو بن درع الشافعي الدمشقي[١].

ولد بقرية شرقي بصرى الشام، على رأس المائة الثامنة للهجرة (٧٠٠هـ)[٢] في أسرة عرفت بالعلم ومدارسة الكتاب، وتربى في حجر أمه الحافظة، وأخيه المعلم كمال الدين عبد الوهاب فكان به وبأخوته رفيقاً، ولهم شقيقاً، بعد أن تيتموا عام (٧٠٣هـ) بفقد والدهم الذي عرف بالعلم

---

(١) (درع) بالدال المعجمة، وفي بعض المصادر: (ذرع)، وفي بعضها (زرع). انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٤/ ٢٣٧ رقم (٦٣٨) - وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١١ - وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٣١ -والإمام ابن كثير المفسر للزهراني: ١/ ٣١ (رسالة علمية).

(٢) المصادر التي ترجمت للمصنف اختلفت في تحديد ميلاد ابن كثير، فعند الداودي أنه ولد عام (٧٠١هـ) وذكر ابن حجر والسيوطي وابن العماد أن مولده كان على رأس المائة الثامنة (٧٠٠هـ)، وقيل سنة (٦٩٩هـ) وهذا مستنبط من كون المصنف انتقل إلى دمشق مع أخيه وله سبع سنين سنة ٧٠٦هـ.

واشتهر بالخطابة وقول الشعر، وكان تلميذاً تلقى العلم عن النووي والفزاري وغيرهما.[١]

ولشغف العائلة بالعلم، شدت الأسرة الرحيل إلى حاضرة العلم، ومأوى العلماء، إلى دمشق -وكان قد سبقهم قبل وفاة والدهم أخ لهم يقال له إسماعيل، وتوفي بها وهو يطلب العلم فسمي المصنف باسمه لحب الوالد لولده -واستقرت الأسرة هناك بعد وفاة والدهم بأربع سنين عام (٧٠٦هـ)، وكان أبو الفداء حتى ذلك العهد يتلقى أبجديات العلم على يد أخيه وأستاذه عبد الوهاب، حتى إذا اشتد عوده دفعه الأخ إلى حلقات العلم فانتظم فيها، وعرفته أزقة دمشق طالب علم مجد ومثابر، كما عرفته المساجد ودور المعرفة عابداً ومجتهداً.

حفظ القرآن الكريم وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر،[٢] وأقبل على حفظ المتون ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو لا يزال في ريعان الشباب، فحفظ التنبيه وله ثمان عشرة سنة[٣] وحفظ مختصر الحاجب[٤] وسمع بدار الحديث الأشرفية نحواً من خمسمائة

---

(١) انظر: البداية والنهاية للمصنف: ١٤/ ٣٢.

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ١٤/ ١٥٠.

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ١٤/ ١٠٧.

(٤) انظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٣١.

جزء بالإجازات والسماع في الحديث على الشيخ ابن الشحنة[١]، وصنف في صغره كتاب (الأحكام على أبواب التنبيه)[٢]ولنبوغه -يرحمه اللّه- تصدر أقرانه، وفاق خلانه، حتى أعجب الشيوخ به وترجموا له وأثنوا عليه في حياته، وتلك مكرمة لا تحصل إلا لقلة من الناس.

شيوخه وتلامذته:

لقد اختير للحافظ ابن كثير - يرحمه اللّه- حاضرة من حواضر العلم، ومرتعاً من مراتع المعرفة وأرضاً بورك فيها، يشد العلماء الرحال إليها، والمقام بها، ويأنس الطلبة بسكناها، ويحلو لهم العيش بين أحضانها، فلا غرو أن تحفل تلك الدوحة (دمشق) بجمع غفير من أهل العلم كالذهبي والمزي وابن عساكر وغيرهم من الذين علت همتهم، وعرفوا فضل المدينة وسكناها.

لقد تلقى الحافظ أبو الفداء العلم على يد صفوة من علماء دمشق في وقتٍ نشطت فيه الحركة العلمية نشاطاً ملموساً في شتى الفنون والمعارف، ومن هؤلاء:

عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري الشهير بابن الفركاح[٣]، وأحمد بن

---

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ١٥٠.

(٢) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٢.

(٣) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزاري، عالم بالعربية والفقه والأصول، انتهت=

أبي طالب الحجار، المعروف بابن الشحنة[١]، وغيرهم كابن عساكر وابن قاضي شهبة، والمزي.[٢]

أما تلاميذه فقد ذكر في البداية والنهاية[٣] أنه كان للحافظ ابن كثير في اليوم الواحد ستة مواعيد تقرأ عليه، أولها بمسجد هشام بكرة قبل طلوع الشمس، ثم تحت النسر[٤]، ثم بالمدرسة النورية، وبعد الظهر بجامع تنكز، ثم بالمدرسة العزية، ثم بالكوشك... إلى أذان العصر، ثم بعد العصر بدار ملك الأمراء أمير علي، بمحلة القضاعين إلى قريب الغروب، ويقرأ صحيح مسلم بمحراب الحنابلة.

وهذا النص خير دليل على كثرة التلاميذ الذين وردوا هذا النبع الصافي حتى ارتووا وشنفوا الآذان بالسماع، ومن أولئك المشاهير الذين

=إليه معرفة المذهب الشافعي، له التعليقة على التنبيه، توفي (٧٢٩هـ). انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ١٤٦- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٨٨.

(١) هو أحمد بن أبي طالب بن نعمة بن حسن الحجار بن الشحنة، محدث انفرد بالرواية عن الحسن الزبيدي، قيل: كان بين سماعه للصحيح وموته مائة سنة، توفي (٧٣٠هـ). انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ١٥٠- والدرر الكامنة لابن حجر: ١/ ١٤٢.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ١٤/ ١٣١-١٨٥-١٩١-٢٢٥- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٢- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٣١.

(٣) البداية والنهاية: ١٤/ ٣١٢.

(٤) اسم قبة في الجامع الأموي في دمشق.

تلقوا عن ابن كثير:

الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجي الحسباني ت(٨١٦هـ)[١]، وبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي ت(٧٩٤هـ)[٢]، ومحمد بن محمد بن محمد الجزري صاحب النشر ت(٨٣٣هـ)[٣] وغيرهم.

مؤلفاته:

يقول ابن حبيب عن الحافظ ابن كثير: سمع وجمع وصنف.. وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد[٤]. ويقول الحافظ ابن حجر: سارت تصانيفه في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته.[٥]

لقد صنف ابن كثير العديد من المصنفات اشتهرت فانتشرت حتى اعتمد عليها في بابها كالتفسير والتاريخ والحديث والسيرة وغير ذلك.

---

(١) هو أحمد بن علاء الدين حجي بن موسى الحسباني، محدث حافظ مؤرخ، ويضرب به المثل في جودة ذهنه وحسن أبحاثه، له الدارس في أخبار المدارس وغيره، توفي (٨١٦هـ). انظر: الضوء اللامع للشوكاني: ١/ ٢٧٠- وشذرات الذهب لابن العماد: ٧/ ١١٦.

(٢) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ٣/ ٣٩٧- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٣٣٥.

(٣) انظر: الضوء اللامع للشوكاني: ٩/ ٢٥٥- وشذرات الذهب لابن العماد: ٧/ ٢٠٦.

(٤) انظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٣١.

(٥) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ١/ ٣٧٤.

obeikandl.com

ومن مصنفاته:

١) البداية والنهاية، موسوعة تاريخية ضخمة تابع المصنف فيها الأخبار، وطبعت مراراً وتكراراً.

٢) التفسير، وهو موضوع الباب.

٣) تهذيب الكمال لابن الصلاح، طبع باسم (الباعث الحثيث) علق عليه الأستاذ أحمد محمد شاكر.

٤) السيرة النبوية: ذكر أنها صغيرة، غير أن الأستاذ مصطفى عبد الواحد انتزع السيرة من البداية والنهاية وأخرجها محققة، وأخبر أن المصنف قد ضمها إليه - أي إلى التاريخ -[١].

٥) أحاديث التوحيد والرد على أهل الشرك.[٢]

٦) الاجتهاد في طلب الجهاد. وغير ذلك[٣]

---

(١) انظر: مقدمة السيرة النبوية لمصطفى عبد الواحد: ١/ ١٢.

(٢) انظر: الإمام ابن كثير المفسر للزهراني: ٧٢، رسالة علمية جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

(٣) لمعرفة المزيد من مصنفات الحافظ يراجع: البداية والنهاية: ١٠/ ٢٥١- والدرر الكامنة لابن حجر: ١/ ٣٧٣- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٢- وكشف الظنون لحاجي خليفة: ٢/ ١١٠٥- والإمام ابن كثير المفسر للزهراني: ٥٨- ٨٥- وشذرات الذهب=

عقيدة الحافظ ابن كثير ومكانته العلمية:

الحافظ ابن كثير علم من أعلام السلف المشهود لهم بحفظ المتون وكثرة الاستحضار، وسلامة العقيدة، ونصرة مذهب السلف في الأصول والفروع، وارتضاء ذلك قولاً وعملاً، والأدلة على ذلك كثيرة امتلأت بها مصنفات الحافظ -يرحمه اللّه- ولا يعجز الباحث من الوقوف على المزيد منها بيسر وسهولة.

وقد كانت لعلاقة الحافظ بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلمذته على يده الأثر البالغ في توجهه السلفي، وتصديه لأهل الزيغ والضلال من الملل والنحل في تلك الفترة التي ظهرت فيها البدع والمنكرات، وكثرت حتى افتتن الناس في دينهم، فقيّض اللّه لنصرة الحق علماء عاملين، بالحق ناطقين، نافحوا عن دين اللّه، وبينوا انحراف الضالين وتأويل المبطلين، وكان منهم الحافظ ابن كثير، فقد نافح عن شيخه ابن تيمية - الذي كان رمزاً للتصدي للباطل -وارتضى كثيراً من آرائه حتى امتحن بسبب ذلك وأوذي.[1]

ولقد حظي الحافظ بمكانة مرموقة عند أهل عصره، فشهدوا له بعلو

=لابن العماد: ٦/ ٢٣١- ومقدمة السيرة النبوية للدكتور مصطفى عبد الواحد: ١/ ١٢.

(١) انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٤/ ٢٣٨- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٣- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٣٢.

الكعب، ولقيت أقواله القبول عند أهل العلم، وأجمعوا على حبه، والثناء عليه وعلى علمه وسلامة عقيدته، ولهذا تسلم مشيخة دور العلم المشهورة في دياره كدار الحديث الأشرفية وغيرها[١] والتدريس في مدارس عديدة كالتنكزية الكبرى[٢] والنورية الكبرى[٣] والمدرسة النجيبية[٤] والجامع الأموي[٥]، كما اسندت إليه الخطابة في جوامع عديدة[٦].

كل هذا الأمر دفع شيخه الذهبي ليترجم له ويثني عليه ثناءً حسناً، وهل هناك شرف يعدل هذا الشرف، شيخ يترجم للتلميذ ويقول عنه: إمام محدث بارع، فقيه متفنن، ومفسر نقاد، له تصانيف مفيدة[٧].

لقد كثرت النصوص التي بينت مكانة الحافظ ابن كثير وتواترت، ومن تلك النصوص: ما نعته به تلميذه الوفي الحافظ ابن حجي بقوله: كان أحفظ من أدركناه لمتون الحديث وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئاً

---

(١) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٢.

(٢) انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٣.

(٣) انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ٣١٢

(٤) انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ١٧٣.

(٥) انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ٣٢١.

(٦) انظر: البداية والنهاية: ١٤/ ٢٦٣.

(٧) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ١/ ٣٧٤- وإنباه الغمر له: ١/ ٤٦.

كثيراً من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيهاً صحيح الذهن يحفظ التنبيه إلى آخر وقت، وشارك في العربية مشاركة جيدة.[١]

كما وصفه ابن حبيب بقوله: اشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير.[٢]

ونعته الداودي: بقدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ.[٣]

ناهيك عن ثناء الأعلام المتأخرين الذين وقفوا على خلاصة علم المتقدمين فأقروا للحافظ بالفضل والرسوخ في المعقول والمنقول، وكتب التراجم تزخر بكم هائل من النصوص التي تبين علو كعب المصنف، وسمو فكره، وسلامة عقيدته.

وفاته:

في يوم الخميس، السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة (٧٧٤هـ) سلم الحافظ ابن كثير الروح إلى بارئها، وفاضت بعد حياة مليئة بالجد والاجتهاد والجهاد، ونشر النور والعلم وتبديد الظلمات،

---

(١) انظر: طبقات الشافعية لابن شهبة: ٤/ ٢٣٨- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٢.

(٢) انظر: إنباه الغمر بأبناء العمر لابن حجر: ٣/ ٤٦- وشذرات الذهب لابن العماد: ٦/ ٢٣١.

(٣) انظر: طبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٢.

فقد فيها البصر غير أنه بقي بصيراً يذكر اللّه إلى آخر نفس، ودفن إلى جانب شيخه وقدوته شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمهما اللّه رحمة واسعة، وجزاهما عنا وعن المسلمين خير الجزاء[1].

ثانياً: التعريف بالتفسير والمقدمة:

يعد تفسير الحافظ ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) من أكثر التفاسير انتشاراً واعتباراً في عصرنا الراهن، عند الخاصة والعامة، فقد حبا اللّه المصنف قوة في الفهم، وسداداً في الرأي، واعتباراً في الحجة، إضافة إلى سلامة المنهج ووضوح الطريقة وجزالة العبارة، كل ذلك كانت أسباباً جعلت لهذا التفسير الاعتبار والقبول والاستمرارية.

فحين تعددت ألوان التفسير، وسلك المتقدمون فيه مذاهب متنوعة، ووجدت التفاسير الطوال التي امتلأت بالخلافيات في شتى الألوان،

---

(١) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر: ١/ ٣٧٤- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١٣.

وينظر للمزيد في ترجمته: إنباه الغمر بأبناء الغمر لابن حجر: ١/ ٤٥- والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني: ١/ ١٥٣- والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي: ٣٦- والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر: ١/ ٣٧٣- وذيل تذكرة الحفاظ، للسيوطي: ٤/ ٣٦١- والسيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٤-١١- وشذارت الذهب لابن العماد الحنبلي: ٦/ ٢٣١- وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٤/ ٢٧٣- وطبقات المفسرين للداودي: ١/ ١١١-١١٣- والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي: ١١/ ١٢٣.

وعجزت الهمم عن متابعة ذلك، اتجه جماعة من أهل العلم استشعروا وعورة الطريق، إلى سلوك طريق مختصر لتأويل كتاب اللّه، وبيان معاني ألفاظه، متوسطين في ذلك، جامعين بين المأثور والرأي، فكان الحافظ واحداً من هؤلاء الذين ارتضوا هذا النهج، بل **يعد فارس هذه الحلبة، ورائد هذه الكتيبة.**(١)

لقد قدم الحافظ ابن كثير تفسيراً جمع فيه المأثور من بيان رسول اللّه ﷺ وصحابته والتابعين، وبين ما توصل إليه من إعمال الرأي، المعتمد على اللغة وفهم السلف، في مباحث هامة تحدث عنها العلماء، فقهية كانت أو نحوية أو لغوية، أو غيرها من المسائل التي لها صلة بتوضيح الآيات والمعاني، بعبارة سلسة، وألفاظ مختارة، ولعله هو الأمر الذي دفع السيوطي ليقول: له تفسير لم يؤلف على نمطه مثله.(٢)

وهو الأمر الذي جعل الشوكاني يقول: جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها.(٣)

ولأهميته عند أهل العلم اتجهت الأنظار قديماً وحديثاً لاختصاره

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، مقدمة التحقيق: ١/ ٦.

(٢) انظر: ذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي: ٤/ ٣٦١.

(٣) انظر: البدر الطالع للشوكاني: ١/ ١٥٣.

وتجريده من بعض ما ينبغي، ففي النصف الثاني من القرن الثامن اختصره سعيد بن محمد بن مسعود الكازروني، وسماه (البدر المنير)[١]، وفي عصرنا الحالي وجدت ثلاثة مختصرات للكتاب، اختصره الأستاذ أحمد شاكر وسماه (عمدة التفسير من الحافظ ابن كثير) غير أنه لم يتمه[٢]، واختصره الشيخ محمد علي الصابوني، ولقي شهرة واسعة، غير أن موقف المختصر من بعض المسائل العقدية جعل طلبة العلم يصدون عنه، ويفضلون اختصار الشيخ نسيب الرفاعي المسماة (تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير).

ولأهميته أيضاً لقي هذا التفسير عناية خاصة من الأكاديميين في الجامعات فسجلت فيه وحوله عدة رسائل علمية.

بقي أن أشير إلى أن الحافظ ابن كثير قد تأثر بشيخ هذا الفن ابن جرير الطبري تأثراً ملحوظاً وإن اختار منهجاً مغايراً، ورد على بعض آرائه وناقشها مناقشة جادة، كما تأثر بالحافظ جل المفسرين الذين جاؤوا من بعده كأبي السعود والآلوسي والقاسمي والشنقيطي وسيد قطب وغيرهم.

---

(١) هو سعيد بن محمد بن مسعود الكازروني، محدث، شرح صحيح البخاري وغيره، توفي (٧٨٥هـ) انظر: الأعلام للزركلي: ٣/ ١٠١- ومعجم المؤلفين لرضا كحالة: ٤/ ٢٣١- وبروكلمان: ٢/ ٦٠.

(٢) طبع في مصر وصدر عن دار المعارف في خمسة أجزاء.

ويمتاز هذا التفسير بأن الحافظ يفسر القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين، فإن لم يجد التجأ إلى إعمال الرأي المؤيد باللغة، وهو يمحص الروايات والأخبار في كل ذلك، وينتقد البعيد المتكلف، كما يحكم على الأحاديث والآثار ويبين درجتها في الغالب.

ينتصر المصنف لمذهب السلف، ويعرض عن الإسرائيليات وإن ذكر بعضاً من القسم المسكوت عنه فإنه إنما يذكرها للاستشهاد لا للاعتقاد، ويصرح بأن غالب ما في هذا النوع لا فائدة فيه يعود إلى أمر ديني.[1]

كما أنه لا يتوانى عن ذكر أسباب النزول، فيسرد الروايات، ويختار الراجح منها، ويذكر المسائل الفقهية بإيجاز دون إسراف أو تطويل.

وقد نبه الحافظ في خطبة كتابه إلى أهمية تفهم كتاب اللّه مصداقاً لقوله تعالى ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢] وعليه فإن العلماء مطالبون بالكشف عن معاني كلام اللّه، وتفسيره وتعليمه وتعلمه، وتبصير الناس بها، وهو أمر يستدعي معرفة أحسن الطرق الموصلة إلى السداد في القول، لأجل هذا خص المصنف مقدمته لبيان تلك الطرق.

وقد جاءت المقدمة مع خطبة الكتاب في سبع صفحات من القطع

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ١٤.

الكبير، وهي ليست طويلة إذا ما قورنت بمقدمات أسلافه الطبري وابن عطية وغيرهما، على خلاف ما ذكر الذهبي من أنه قدم لتفسيره مقدمة طويلة هامة.[١]

كما أنها ليست شاملة كمقدماتهم، ولعل المصنف لم يرد ما أراده السابقون من تقديم أبحاث بين يدي تفاسيرهم تتضمن ما يجب على طالب التفسير معرفته قبل البدأ في التفسير، فقد اكتفى الحافظ ببيان أحسن طرق التفسير، وما يتعلق بذلك من المسائل.

كما رأى الحافظ أن يلحق بالتفسير كتاباً ألفه في فضائل القرآن، مقتدياً بالبخاري -رحمه اللّه- الذي أخر كتاب الفضائل عن كتاب التفسير في «صحيحه»، ثم عدل عن رأيه ووجد أن تقديم الفضائل على التفسير هو الأولى، وهو ما عمد إليه في آخر نسخة مخطوط من كتابه، وهي في مكتبة الحرم المكي برقم [(٩٠) تفسير]كتبت في عصر المؤلف وقبل وفاته كما هو ثابت في التاريخ الذي في آواخر الأجزاء[٢].

يقول المصنف في «ص١١» من المخطوط المذكور على ما ذكره الأستاذ الزهراني:

وذكر البخاري -رحمه اللّه- كتاب فضائل القرآن بعد كتاب التفسير

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٢٤٤.

(٢) انظر: الإمام ابن كثير المفسر للزهراني: ١٨٧.

لأن التفسير أهم، ولهذا بدأ به، ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير، وذكرنا فضائل كل سورة قبل تفسيرها ليكون باعثاً على حفظ القرآن وفهمه، والعمل بما فيه، واللّه المستعان.[١]

وأعود إلى المقدمة فأقول: إن الذهبي ذكر أن الحافظ ابن كثير اعتمد في مقدمته كتاب شيخه ابن تيمية، فقال: وأغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في مقدمته في أصول التفسير.[٢]. وما قاله حقيقة فما جاء في هذه المقدمة هو بتمامه من كلام شيخه، ولا غرو في ذلك فإن الحافظ -كما سبق أن ذكرت- قد تأثر بابن تيمية في كثير من آرائه حتى أوذي بسبب ذلك، كما أن ما كتبه ابن تيمية في مقدمته يعتبر من أهم ما كتب في هذا الباب على الإطلاق[٣].

وقد طبعت المقدمة مع أصل الكتاب طبعات عديدة أذكر منها:

١) طُبع بهامش تفسير (فتح البيان في مقاصد القرآن) لأبي الطيب صديق حسن القنوجي - المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠١هـ في ستة مجلدات.

٢) طبعة دار إحياء التراث العربي، عيسى البابي الحلبي، قوبلت على

---

(١) انظر: الإمام ابن كثير المفسر للزهراني: ١٩٠-١٩١.

(٢) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: ١٨٧.

(٣) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، مقدمة المحقق الأستاذ عدنان زرزور: ١٦.

عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية، وصححها نخبة من العلماء، في أربعة أجزاء، وقد صورت هذه الطبعة مراراً.

٣) طبع بعناية الأستاذ محمد رشيد رضا، وبأسفله تفسير البغوي، عام ١٣٤٣هـ وصدر بمطبعة المنار على نفقة الملك عبد العزيز آل سعود -رحمه اللّه- في تسعة مجلدات.

٤) طبعة مطابع الفجالة الجديدة -مصر ١٣٨٤هـ بعناية ونشر الشيخ عبد الشكور فدا، صاحب مكتبة النهضة الحديثة بمكة، في أربعة مجلدات.

٥) طبعة دار الفكر -بيروت ١٣٨٥هـ في سبعة مجلدات، وأعيد طباعتها عام ١٣٨٩هـ الطبعة الثانية، وألحق بها فضائل القرآن.

٦) طبعة دار المعرفة -بيروت ١٣٨٨ - و١٤٠٦هـ في أربعة مجلدات وهي الأكثر انتشاراً بين الناس.

٧) طبعة دار الشعب -القاهرة ١٣٩١هـ- في أربعة مجلدات بتحقيق: عبد العزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البنا، وهي من أجود الطبعات.

٨) طبعة دار الأرقم للنشر والتوزيع في أربعة مجلدات -الكويت ١٤٠٥هـ، خرج أحاديثه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي.

٩) طبعة مكتبة العبيكان بالرياض ، قدم له أستاذي القدير الدكتور محمد بن عبد الرحمن الشايع.

ثالثاً: عرض موضوعات المقدمة:

ذكرت فيما سبق أن الحافظ حصر مقدمته على بيان أحسن طرق التفسير، وأنه أخذها برمتها من كتاب شيخه ابن تيمية (**مقدمة في أصول التفسير**)، وإن كان قد أسقط منها بعض الجمل.

أسبق المصنف المقدمة بخطبة بين يدي تفسيره، حمد فيها اللّه منزل الكتاب على خاتم النبيين، المرسل إلى جميع الثقلين بشيراً ونذيراً، فندبهم إلى تدبر معاني كلامه وتفهمه ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢] ومقتضى هذا الندب أن ينصرف العلماء إلى الكشف عن تلك المعاني، وتعلمه وتعليمه، وإلا كانوا كمن ذمهم اللّه من أهل الكتاب في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ولفهم كتاب اللّه على الوجه الصحيح كان على المفسر أن يعلم أحسن الطرق المؤدية لذلك، وهو الموضوع الذي ضمَّنه المفسر مقدمته.

يرى الحافظ ابن كثير تبعاً لشيخه ابن تيمية -رحمه اللّه- أن أصح الطرق هو تفسير القرآن بالقرآن، يليه تفسير القرآن بالسنة لكونها شارحة وموضحة له، فإن لم يجد المفسر مراده في الكتاب ولا في السنة رجع إلى

أقوال الصحابة -رضي اللّه عنهم - واعتمد فهمهم له، نظراً لما شاهدوه من القرائن والأحوال، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، وخاصة كبراؤهم كابن عباس وابن مسعود وغيرهم. وأورد لذلك الأدلة والأمثلة.

بعدها عرج المصنف على ما نقل عن بعضهم في كونهم حكوا بعض أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول اللّه ﷺ بقوله: « بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج... » الحديث.[1] فبين أن الرواية الإسرائيلية ثلاثة أقسام، بينها وبين الموقف منها قبولاً ورفضاً.

انتقل الحافظ بعد ذلك ليبين حكم تفسير التابعي، فذكر أولاً أن كثيراً من الأئمة يرجعون إلى أقوال التابعين كمجاهد الذي عرض المصحف على ابن عباس ثلاثاً يسأله عن كل آية، وكسعيد بن جبير وعكرمة وغيرهم، مؤكداً أن اختلافهم في كثير من الأحايين هو اختلاف تنوع لا اختلاف تباين، وقرر عقب ذلك أن قول التابعي لا يكون حجة على من خالفهم إلا إذا أجمعوا على الشيء فحينئذٍ لا يرتاب في يكونه حجة.

ثم تعرض للتفسير بالرأي، وأوضح أن التفسير بمجرد الرأي، والتكلم في كتاب اللّه بما لا علم له به حرام غير جائز، وهو الذي ورد فيه التحذير والوعيد في أحاديث كثيرة، وتحرج السلف من القول في كتاب اللّه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل. البخاري مع الفتح: ٦/ ٤٩٦.

لذلك، أما التكلم من الذي يعلم اللغة والشرع فواجب لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولقوله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[1]، ولهذا رأينا لأولئك الذين تحرجوا من القول في بعض المواطن أقوالاً عديدة.

وقبل أن يختم ضعّف المروي عن السيدة عائشة - رضي اللّه عنها- في كون النبي ﷺ لم يفسر إلا آياً بعدد. وقال: حديث منكر غريب. وختم ببيان أوجه التفسر الأربعة المنسوبة للحبر ابن عباس رضي الله عنه.

رابعاً: منهج ابن كثير في مقدمته:

من مناهج ثلة من القدماء في التأليف أنهم إذا وقفوا على تحرير لأحد السابقين من أهل العلم في مسألة من المسائل العلمية، وارتضوا ذلك وتبنوه، نقلوه بنصه في تآليفهم وكتبهم، سواء أشاروا إلى ذلك كما فعل القرطبي الذي رأى أن من بركة العلم عزو القول إلى قائله، أم لم يشيروا كما فعل المصنف الحافظ ابن كثير في مقدمته التي بين أيدينا، ولا نشك أن منهج الأول أسلم، وإن كان المنهج الآخر لم يلقَ النكير من أهل العلم، وبخاصة إذا كان المنقول عن شخص له اتصال مباشر بالناقل، كما هو الحال بالنسبة للحافظ وشيخه ابن تيمية، حينئذ يكون الأمر غير خاف على الذين وضع الحافظ ابن كثير كتابه لهم.

---

(١) سبق تخريجه.

مهما يكن الأمر فإن الحافظ ابن كثير اتبع المنهج النقلي في مقدمته، فنقل جلَّ ما جاء في مقدمة شيخه في هذا الموضوع، وإن أعمل قلمه في حذف اليسير من الآثار، كما أضاف إضافات خفيفة رأى أن من الأهمية ذكرها.

ومن الذي أسقطه أثران أوردهما ابن تيمية في معرض حديثه عن تفسير التابعي، الأول منهما ورد عن قتادة، وجاء معترضاً أخبار مجاهد، فربما أسقطه الحافظ لأجل ذلك.

والآخر كان من أخبار مجاهد نفسه.

أما الإضافات، فقد أضاف بعض الروايات الدائرة حول التفسير بالرأي، واستدرك على شيخه ابن تيمية ما رواه ابن جرير بسنده عن السيدة عائشة -رضي اللّه عنها- قالت: ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً تعد علمهن إياه جبريل عليه السلام.[1] وتكلم عن سند الرواية، كما نقل كلام ابن جرير عنها.

خامساً: بيان مدى التزام المصنف في تفسيره بما جاء في مقدمته:

لم يتحدث ابن كثير في مقدمته عن المنهج الذي سيسلكه في تفسيره، ولا ألزم نفسه بشيء حتى يستطيع المرء الحكم عليه، وبيان مدى التزامه.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ١٠٣١٨ وسيأتي تخريج الأثر.

سادساً: مصادره في مقدمته:

المصدران المعتمدان للحافظ ابن كثير في مقدمته هما كتاب شيخه ابن تيمية (مقدمة في أصول التفسير) الذي لم يصرح بالرجوع إليه والتعويل عليه، والمصدر الثاني تفسير ابن جرير الطبري الذي نقل عنه يسيراً.

وقد أملى ابن تيمية مقدمته من فؤاده، دون الرجوع إلى مرجع محدد - كما ذكر ذلك[١] - غير أنه أورد أقوالاً لأهل العلم في المسائل التي عالجها، وكان جلّ اعتماده على ابن جرير[٢] وأبي عبيد القاسم بن سلام[٣] وغيرهما.

سابعاً: أهم المزايا، وأظهر المآخذ:

لعل من **أهم مزايا** مقدمة الحافظ ابن كثير أنها عالجت الموضوع المطروق معالجة جادة، وجاءت وافية كافية في بابها.

أما **أظهر المآخذ عليها**، فتكمن في أنها لم تعالج إلا موضوعاً واحداً من موضوعات علوم القرآن الكثيرة التي يحتاج المفسر الوقوف عليها والإلمام بها، كما أن الحافظ ابن كثير لم يأتِ بشيء جديد يضيفه إلى كلام شيخه ابن

---

(١) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٣٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ١٣-١٥-١٦-١٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ١٦-١٧.

تيمية في الموضوع نفسه، عدا تلك الإضافة اليسيرة الـتي ذكرتهـا مـن قبـل. هذا ما علمته، واللّه أعلم.

obeikandl.com